٩٩/٤/٢٨
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠١٤

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

الفكر العربي

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل
الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي
د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة

رئيس التحرير
رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الرحلة وكتب الرحلات الأوروبية الى المشرق

حتّى نهاية القرن الثامن عشر

د. جبّور الدويهي

ليس في نيّتنا في هذا المقال مناقشة حديث (discours) الرحّالة الأوروبيين حول الشرق. فلقد وجدنا أن في التعريف بماهية كتاب الرحلة (relation de voyage) ومضمونه وتطوّر هذا المضمون، بالإضافة إلى التعريف بالرحّالة ونوعيتهم ودوافع انتقالهم إلى الشرق مساهمة أولية لا غنى عنها قبل إبداء أي رأي تقييمي في ما كتبوه. ونتناول هنا كتب الرحلات والرحّالة الأوروبيين إلى المشرق (الامبراطورية العثمانية: مصر، سورية، الأردن، فلسطين، لبنان...) حتى نهاية القرن الثامن عشر، أي قبل ظهور الاستشراق «المتخصص».

يمكن، بشكل نظري عام، اعتبار كتاب الرحلة تدوين دقيق ويومي للمشاهدات والملاحظات. لكن هذا النوع الأدبي الذي بدأ ظهوره في أوروبا الغربية في القرن السادس عشر، وعظم انتشاره ابتداءً من النصف الثاني من القرن السابع عشر. وذلك دون انقطاع حتى مطلع القرن العشرين، حيث قضت عليه وسائل الاتصال السريع والصحافة، يمكن اعتباره نوعاً من «الميدان» الأدبي يحدّده «**بول هازار**» كما يلي:

«إنه نوع أدبي غير واضح الحدود، مناسب لأنه يمكن أن يسكب فيه أي شيء، التوسيعات العلمية وفهارس المتاحف وحكايات الغرام... فهو يمكن أن يكون كتاباً ناشفاً مليئاً بالعالم أو دراسة نفسية أو بكل بساطة قصة حب أو كل ذلك معاً»[١].

فقبل القرن التاسع عشر - حيث سافر وكتب أمثال **غوته وجيرار دو نرفال وشاتوبريان** وغيرهم - لا يمكن الكلام بالنسبة لأدب الرحلات عن نوع أدبي مستقل، إذ لا تجد في القائمة الطويلة للرحّالة الذين سجّلوا مذكراتهم أديب محترف واحد. وقد كان هاجس تعريف القارىء الأوروبي إلى بقاع مجهولة أو غريبة، يعفي الكاتب من أي تكلّف أو صناعة أدبية. وكانت بالتالي كتب الرحلات تأتي، في أفضل أحوالها، على شكل سرد

يومي أو تبادل رسائل حقيقية أو وهمية. وطالما أن الإقبال على هذا الصنف من القراءات بقي قوياً، كان جمهور القرّاء يكتفي بهؤلاء المؤلفين الذين غالباً ما كـان يستعين بعضهم بكتب البعض، في زمن لم يكن للملكية الأدبية فيه من وجود.

رغم طغيان الطابع الوثائقي عليها، تبقى كتب الرحلات نوعاً من التعبير الأدبي الهجين والضبابي. لكن الاطّلاع عليها يدلّ على قيمة محصّلة المعارف في بلد ما، حول الشعوب والبلدان الغريبة، وخاصة على حساسيات وطباع المرحلة التي كتبت فيها.

الرحلة الى المشرق:

حتى ظهور البعثات العلمية في القرن الثامن عشر، كانت الرحلة إلى المشرق تعتبر بالنسبة للأوروبيين نوعاً من التكملة للحجّ إلى الأراضي المقدسة. فالسفر عبر بحر يتزاحم فيه القراصنة من مختلف الجنسيات باتجاه أراض تتكاثر فيه المخاطر من حقيقية (بعض القبائل في سورية وفلسطين)، أو من نسج خيالات خصبة، كان يتطلب دافعاً عظيماً. فكان الهمّ الأساسي هو الوصول إلى القدس، وكان المبشّرون وحتى التجار والدبلوماسيون الذين يؤمون بلاد المشرق لأسباب مختلفة، يبدأون زيارتهم بها. من هناك، وبعد التعرّف على حقيقة صعوبات السفر، كان الأوروبي ينطلق إلى زيارة بقية أجزاء سورية أو يبحر مجدداً إلى مصر. وكانت الرحلة غالباً ما تبدأ بروما من أجل الحصول على البركة الرسولية التقليدية أم من مرسيليا، بوابة المشرق الحقيقية. بعد التوقّف في الجزر اليونانية وزيارة اسطمبول يصل المسافر إلى الساحل السوري مروراً بجزيرة قبرص.

إن النزول في سورية، كان قلّما يتم في عكا أو في «دسكرة» يافا. فلقد كانت خطوط النقل التجاري المنطلق من مرسيليا، غالباً ما تؤدي بالمسافر إلى النزول في أسكلة صيدا الزاهرة أو في طرابلس. في الشمال، كانت تجارة الاسكندرون تتقهقر بسبب سوء مناخها، وقد اضطر التجار الفرنسيون إلى هجرتها نهائياً، والاستيطان في طرابلس ابتداءً من أواسط القرن السابع عشر. وقد احتلت صيدا المركز التجاري الأول في بداية القرن نفسه بجهود الأمير فخرالدين المعني الثاني. وقد تتالى على التجارة فيها التوسكانيون والفرنسيون؛ وأحصي بين سنة (١٦٨٥) وسنة (١٧٠٩) ما يزيد عن (١٧٥ تاجراً) فرنسياً[٢] كانوا يقطنون خاناتها وأهمها «خان الفرنج»، مركز إقامة القنصل. أمّا أهمّ الطرق الداخلية، فكانت تؤدي من صيدا إلى دمشق ومن هناك إلى حلب، أكبر مستودع للمنتجات التي كانت تحملها القوافل من الشرق الأقصى. وفي مصر، بعد زيارة دمياط والاسكندرية والرشيد والقاهرة والأهرام، نادراً ما كان مسافرو تلك الحقبة يغامرون بصعود النيل.

أمّا أفضل تحديد لمضمون كتب الرحلات في تلـك المرحلـة، فلقـد وجـدنـاه في مقـدمـة رحلـة «ديهاي

كورمونين» (Deshayes Courmenin)[٣]، الذي تردّد كثيراً قبل الشروع في سرد تفاصيل مهمة، كلّفه بها الملك لويس الثالث عشر لإيقاف الطائفة الأرمنية في فلسطين من الاستمرار في تنكيلها بالآباء الفرنسيسكان في بيت لحم. ورغم «قلة الاعتبار للآداب في هذه الأيام»، دوّن «كورمونين» مذكراته، وتوصل في «التنبيه» التقليدي إلى القارىء من إعطاء تحديد نموذجي لكتب الرحلات إلى المشرق في القرنين السابع عشر والثامن عشر:

«سترى أولاً إني تحاشيت إضجارك بأمور سخيفة يعرفها الجميع، مبتعداً قدر المستطاع عمّا كُتب في هذا الموضوع قبلي، وذلك بالطبع دون الابتعاد عن الحقيقة. فلقد توقّف البعض كلياً عند وصف الأماكن المقدسة، وأضاف عليها البعض الآخر ملاحظات مستوحاة من العصور القديمة. وهنالك من سبر أسرار وعجائب الطبيعة. لكني أجرؤ على الإدعاء إني، دون أن أنسى شيئاً مما تجدر ملاحظته من قبل فارس أو أديب، أعطيك بالإضافة إلى ذلك أشياء خاصة وجديدة حول حكم المقاطعات وحول أهمية المدن ومصالح الأمراء وأمور مشابهة لا يجدر إهمالها. أمّا أسلوبي في الكتابة، فأعترف لك صراحة أنه ليس غاية في الاتقان. وقد يجده البعض بسيطاً أو حتى مبتذلاً. لكني أطلب منهم قبل أن يحكموا عليه أن يأخذوا بعين الاعتبار أن هذه الرحلة التي أدوّنها ليست بحاجة أن يزيّنها غير قول الحقيقة»[٤].

في هذا المقطع الصغير، يشير هذا الرحّالة المغمور إلى أهم ميّزات كتب الرحلات في بداية ظهورها، كالتصرّف بكتب الآخرين وبساطة الأسلوب واستلهام الرحّالة الأقدمين (سترابون وهيرودوت)، والإصرار على نقل الغرائب من البلاد البعيدة. هكذا، وهو يدور حول القدس، كان المسافر الأوروبي يرنو باستمرار إلى الماضي، إلى الاصول في أرض يشعر بأن له بها أكثر من صلة، وأكثر من ذكرى (الكتاب المقدس والأماكن المقدسة، الحملات الصليبية وما تبقّى منها من آثار...). وأصبحت معرفة «الحالة الحاضرة» للامبراطورية العثمانية تدريجياً الموضوع الفعلي للمنافسة بين الرحالة ـ المؤلفين. وقد استجابت هذه المنافسة، في نقل مشاهدات حيّة وآراء جديدة، إلى حاجة فكرية للانفتاح على «الآخر» خارج أوروبا بدت ملحّة في أواخر القرن السابع عشر مما أدّى إلى إخراج كتب الرحلات من ارتباطها بالأصول.

ازدهار النوع:

يمكن وصف رحالة القرن السادس عشر بنوع من الصليبيين المتأخرين، يسافرون ضمن «عالم مغلق» في زمن كانت فيه الامبراطورية العثمانية تدق أبواب أوروبا الكاثوليكية. ولعلّ أهم ما يميّز كتاباتهم عداء ديني يطال المسلمين والمسيحيين الشرقيين، ينبع من عرقية أوروبية ـ كاثوليكية (Européocentrisme)[٥]. والأكثرية الساحقة من الرحّالة الأوائل كانت من الحجاج ورجال الدين.

مع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر، عرف أدب الرحلات انتشاراً لا مثيل له في أوروبا وخاصة في فرنسا. ففي باريس، كان الجمهور يقبل بنهم على قراءة كتب الرحلات ذات العناوين الطويلة المشوّقة: «أسفار بيترو ديللا فاللي الشهير - النبيل الروماني المعروف بالرحالة الأعظم مع تعداد دقيق للأشياء الأكثر غرابة التي شاهدها في تركيا ومصر وفلسطين وفارس والهند الشرقية، والتي لم يشاهدها أحد من قبله...». أو «رحلة السيد بول لوكاس التي تتضمن وصفاً لمصر العليا، من القاهرة صعوداً على ضفاف النيل حتى الشلالات، بالإضافة إلى خارطة دقيقة لهذا النهر لم يرسمها أحد من قبل...». وقد طبع في فرنسا في الفترة الممتدة من (١٦٦٥) إلى (١٧٤٥) ما يزيد عن مئة وخمسين رحلة، منها على الأقلّ مئة رحلة جديدة[٦]، قسم كبير منها إلى المشرق. وقد تحسّنت نوعية الرحالة - الكتبة، إن لجهة مستواهم العلمي أو لجهة قدرتهم على التنقيب والمقارنة. ومن بين الأسماء الشهيرة في هذا العصر: يوحنا تافرنيه (Jean-Baptiste Tavernien)، والفارس شاردان (Chardin)، والفارس دارفيو (D'Arvieux)، وبول لوكاس (Paul Lucas). وإذا كان هؤلاء الأربعة يتعاطون التجارة، فإن مهنتهم تلك لم تقلّل إطلاقاً من قيمة ما نشروه إثر عودتهم من رحلات عديدة. وهم لا يقلّون أهمية عن الدكتور برنيه (Bernier)، أو جان تيفنو (Jean Thévenot) الذي كان يسافر «بدافع الاطلاع والشغف بالمعرفة». والتجار كانوا أكثر تحرراً في نظرتهم إلى الشرق وإلى الشرقي، بفعل احتكاكهم الضروري مع السكان، مما أضفى على رواياتهم الكثير من التنوّع والغنى.

وفي تلك الفترة اتسعت آفاق السفر، فبالإضافة إلى الامبراطورية العثمانية، بدأت تنشر كتب رحلات إلى بلاد فارس والهند والصين. وقد حملت هذه الكتب حول بلاد بعيدة أول هزة إلى المفهوم الأوروبي للإنسان والمجتمع والدين، كما أدخلت الشرق إلى الحياة الأدبية والفكرية. وممّا ساعد في زيادة الاهتمام بالشرق، تشجيع الوزير الأول الفرنسي كولبير (Colbert) للمسافرين، عبر مدّهم بالمال واحتياجات الرحلة وخلق «أكاديمية النقوش والآداب»، وإنشاء مدرسة «شبان اللغات» الذين كانوا يُرسلون على حساب الملك إلى الشرق لدراسة اللغات الشرقية هناك.

بقيت الطرفة والمغامرة الخطرة، التي ينجو منها المسافر، تطغى بطابعها القصصي على كتب الرحلات، لكن بدأت تظهر إلى جانبها ملاحظات جريئة حول عوائد الشعوب الشرقية وأطباعها، بالإضافة بالطبع إلى الاستطرادات التاريخية وأوصاف النبات والحيوان. كذلك ظهرت المقارنات «المفيدة». وما كان يصفه الرحالة الأوائل بسرعة بالمتوحش والشاذ عن قوانين الطبيعة، أخذ يصبح تدريجياً مدار تأمّل أعمق ومقارنة بين الشعوب. من هذا الاحتكاك، بدأت تنمو أفكار النسبية والتسامح التي طبعت عصر الأنوار الأوروبي.

الرحّالة ـ العلماء :

مع نهاية حكم لويس الرابع عشر، أصبحت كتب الرحلات الفرنسية الخاصة بالمشرق قليلة نسبيا، وإن وجدت فهي لا تقدِّم أشياء جديدة. وقد هبطت حمى النشر في فرنسا في أواخر النصف الثاني من القرن الثامن عشر. لم تنقطع بالطبع كتب الحجّاج؛ ولكن الواضح أن أرض المشرق العتيقة بدت لوهلة وكأنها أصبحت معروفة تمام المعرفة من قبل الجمهور المثقف. فنقرأ مثلاً في كتاب « رحلة إلى سورية وجبل لبنان » لجان دو لاروك (Jean de la Roque)[٧] :

« لن أقول هنا شيئاً خاصاً حول مدينة طرابلس، لأنها أصبحت اليوم معروفة تماماً من قبل الأوروبيين، بسبب العدد الكبير من كتب الرحلات إلى المشرق »، و« سأمتنع عن الخوض فيما يتعلّق بصيدا، كيلا أكرِّر ما قاله قبلي الكثير من الرحّالة » .

في تلك الفترة، كان الآباء اليسوعيون يكتشفون الحضارة الصينية البعيدة، وقد توَّجوا أبحاثهم ونتائج نشاطهم التبشيري بموسوعة حقيقية[٨] . واستمرت جهود التوثيق ومهمات التنقيب عن الآثار في عهد الوصاية وعهد لويس الخامس عشر، وقد تركّز أهمها على مصر. من جهة أخرى، يجب انتظار صدور « رحلة إلى مصر وسورية » لڤولني (Volney)[٩] سنة (١٧٨٧)، لنرى ترجمة لفلسفة الأنوار من خلال أدب الرحلات. قبل ذلك، استعار مونتسكيو من كتب الرحلات الصادرة في القرن السابع عشر لإغناء الخلفية الشرقية لـ « الرسائل الفارسية » (Les Lettres persanes) (١٧٢١). وكان ڤولتير يستشهد ببرنييه وشاردان وتاڤرنيه، في المصنّف التاريخي الكبير « حول العادات » (Essai sur les moeurs)، والذي خصص ما يقارب الأربعين فصلاً منه للشرق (١٧٥٦) .

لكن اكتشاف المشرق كان مستمراً، يقوم به رحالة من مختلف الجنسيات الأوروبية، وخاصة الانكليز. وقد استطاعت بريطانيا المحافَظَةَ على ثبات نسبي في علاقاتها التجارية والسياسية مع الامبراطورية العثمانية. على كل حال كانت هذه الأمة البحرية تسافر منذ القدم:

« إن السفر أمر شائع، والرحّالة يملأون الحانات وطاولات المآدب بأخبارهم العجيبة. وهنالك باستمرار في لندن غول مخيف أو إنسان بدائي متوحش تفغر من رؤيته الأفواه. وغالباً ما كان كتّاب القصص يحمّلون أبطالهم عصا الرحالة، لعلمهم أن ذلك يكسبهم سحراً، حتى لو كانت رحلاتهم تطواف إلى بلاد وهمية تُبنى عليها أجمل القصص »[١٠] .

وبدأت « الدورة الكبرى » الغربية تأخذ مع الزمن أبعاد مؤسسة حقيقية: فلقد أصبح السفر تكملة لا غنى عنها لتربية النبيل الانكليزي الشاب، الذي كان يجول في أوروبا وأحياناً في المشرق برفقة مربيه الخاص. وقد

برز الرواج الكبير لرحلات الاكتشاف المشرقية في القرن الثامن عشر كنتيجة لمسار طويل من النشاط الاستشراقي والاستعرابي، كان محوره كرسي اللغة العربية في جامعة أوكسفورد وجامعة كمبريدج. وقد كرّست سلالة من العلماء - تتلمذ واحدها على يد الآخر - نفسها لأعمال التنقيب والترجمة وفقه اللغة العربية: **وليم بدويل** (William Bedwell) (١٥٦٢ - ١٦٣٢)،، **ادوارد بوكوك** (Edward Pococke) (١٦٠٤ - ١٦٩١)، **وسيمون اوكلي** (Simon Ockley) (١٦٧٨ - ١٧٢٠). وقد نشر المحامي جورج سال(Georges Sale) (١٦٩٧ - ١٧٣٦) ترجمة فريدة للقرآن الكريم، غنية بالتفسيرات والحواشي. إن تآلف الجمهور الانكليزي مع المشرق، جعله يستقبل بحماس سلسلة من كتب الرحلات كانت تتنافس فيما بينها بالجدية في الملاحظة، وبفيض من المعلومات من كل الأنواع فاللاهوتي **توماس شو** (Thomas Shaw)، الذي نشر رحلته سنة (١٧٣٨)، حاول تصنيف ملاحظاته ضمن أبواب مستقلة: «رحلات إلى عدد من مقاطعات شمالي أفريقيا والمشرق، تحتوي على مشاهدات جغرافية وفيزيائية وملاحظات فقهية ومختلطة...». والانكليز لم يكونوا في القرن الماضي غرباء عن طرقات الأرض المقدسة، وأهم الرحلات التي طبعت رحلة **جورج سانديز** (Georges Sandys) (١٦١٠ - ١٦١٢)، ورحلة **هنري موندرل** (Henry Maundrell) (١٦٩٧). وفي القرن الثامن عشر، تبدو رحلة **ريتشارد بوكوك** (Richard Pococke)الأكثر شمولاً بالمقارنة مع رحلات محدّدة أخرى كرحلة **جون غرين** (John Green) إلى سورية، **وجيمس بروس** (James Bruce) إلى النوبة والحبشة، **وهنري روك** (Henry Rocke) إلى مصر واليمن. ويعتبر كتاب بوكوك «وصف الشرق» أغنى وأهم مرجع في كتب الرحلات حول المشرق في القرن الثامن عشر. وقد أمضى ما يقارب الست سنوات في تطوافه الشرقي. وقد صعد مجرى النيل حتى حدود الحبشة، وقطع صحراء سيناء. وقد سيم كاهناً، ثم أسقفاً في الكنيسة الانكليكانية. تميّز كتابه بمراكمة بيانية هائلة، اعتبرت مفيدة في حينه لرجال السياسة والقانون واللاهوت والجغرافيا وعلماء الآثار والحيوان والنبات.

سافر الدانمركيون والألمان أيضاً إلى المشرق، في إطار توسّع عسكري وتجاري في المتوسط وازدهار للدراسات التوراتية بجهود ميكاييليس (Michaélis)، وشولتنز (Schultens)، ويوهان ريسكه (Yohann Reiske). وسنة (١٧٣٧)، وصل ضابط البحرية نوردن (Norden) إلى النوبة؛ ونشر جوناس كورتن (Jonas Körten) سنة (١٧٤٣) رحلة طويلة إلى المشرق. لكن المساهمة الأكمل في معرفة المشرق، جاءت نتيجة رحلة رسمية قام بها خمسة اختصاصيين دانماركيين، رحلة طويلة شاقة قضوا نحبهم جميعاً، باستثناء **كارستن نيبوهر** (Carsten Niebuhr)، الذي نشر سنة (١٨٧٤) مجلدين ضخمين، تحت عنوان «رحلة إلى العربية والبلاد المحيطة»[11]. نذكر أيضاً عالم الطبيعيات السويدي **هسلكويست** (Hasselquist)، **وفان اغمونت**

(Van Egmont) سفير هولندا في بلاط نابولي.

بشكل عام، تحسّن تقديم الكتب، وبدأت تظهر إلى جانب النص تصاميم وخرائط ونقوش ورسوم. ومنذ نهاية القرن السابع عشر، انتشرت رسوم الفنان ـ الرحالة الهولندي كورنليوس لوبروين (Cornélius le Bruyn)، وزيّن بها أكثر من رحالة كتابه. وقد ضمت المجموعة الدانماركية حفّاراً، هو بورنفيد (Baurenfeid)، حائز جائزة النقش من أكاديمية كوبنهاغن للرسم. وفي أواخر القرن الثامن عشر، قام الرسام الفرنسي **لويس ـ فرديناند كاساس** (Louis-Ferdinand Cassas) برحلة مليئة بالمخاطر، دامت أربعة عشر شهراً قادته إلى مصر وسورية، وعاد منها بـ (٣٣٠ لوحة) رائعة[١٢]. في نفس الوقت، كانت الخرائط تصبح أكثر دقة، لكن التحديدات الجغرافية المدروسة لم تظهر إلاّ في العقد السادس من القرن الثامن عشر مع أعمال دانفيل (D'Anville) ودو ليل(De L'Iyle).

لكن التطوّر الحقيقي حصل على مستوى معالجة المعلومات والملاحظات. وبدأ الرحالة في مقدمات كتبهم، يؤكدون على نيتهم الثابتة في إعفاء القارىء من «آرائهم الشخصية» ومغامراتهم. إذ اعتبرت «الأنا» مملة وغير مفيدة. بالطبع لم يقاوم الكثيرون إغراء البروز. ووحده ڤولني توصّل إلى تكتّم شبه تام حول يوميات رحلته. كان هذا التحفّظ مرتبط بخلقية ظهرت جلية لدى الرحالة الأكثر ثقافة. ففي الواقع، أن عدداً كبيراً من الرحلات في هذا القرن، كانت في الأساس نوعاً من مهمات التنقيب شبه العلمية، انطلقت فكرتها من أوساط جامعية تهتم بالمشرق، وتسعى للحصول على أكبر كمية ممكنة من المعلومات الدقيقة. هكذا، تنقت كتب الرحلات من الحوادث المثيرة، وانتفى طابعها القصصي، وحرم القارىء من لذة مرافقة المسافر.

أمّا المعلومات المستقاة من هنا وهناك خلال الرحلة، فلقد أصبحت أكثر فأكثر عرضة لإعادة النظر. فحتى الآن، كثير من الكلام السطحي قيل حول الشرق والشرقيين. لذا، فكتب الرحلات السابقة لم تعد تعتمد كمراجع، وبدأ الرحالة يذكرون بوضوح أسماء الرواة الذين يزودونهم بالأخبار، وأصبح الحذر قاعدة في هذا المجال. وتمتلىء كتب بوكوك ونيبوهر بعبارات من نوع: «وفق ما قيل لي» «على ذمة الراوي»، أو «إن لم أكن مخطئاً». ويشتد التحفّظ عند نيبوهر، فيكتب:

«لا يمكن الحكم على ديانة الأمم الغريبة من خلال بعض الاحتفالات أو العادات، أو من خلال ما يرويه عنهم جيرانهم، لأن هؤلاء يكونون عادة من ألدّ أعدائهم ولا ينقلون عنهم سوى السلبيات».

بالطبع، تميّز عصر الأنوار الأوروبي عموماً بالتردد الشديد في إدانة ما هو غريب عن المعتقدات الأوروبية، وقد انعكس هذا التسامح المتسائل على أدب الرحلات؛ وبدت بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية الشرقية محط إعجاب حقيقي بعد أن كانت موضوع رذل أو سخرية[١٣].

لا بد، في النهاية، من إشارة خاصة إلى ڤولني، الذي أعطى في نهاية القرن الثامن عشر الصيغة الأرقى لكتب الرحلات. لم تتضح جلياً حتى اليوم دوافع مجيء **فرنسوا كونستانتان شاسوبوف** (François-Constantin Chasseboeuf) الذي استعار المقطع الأول من اسم ڤولتير، والمقطع الأخير من اسم قصر فرني (Ferney)، حيث أقام ڤولتير لتركيب اسمه الجديد إلى الشرق. وقد اكتفى الكثيرون بما قاله هو في مقدمة رحلته: « **قرأت وسمعت تكراراً إن أفضل وسيلة لإغناء النفس وتكوين الرأي هو السفر** ». وقد حاول مؤخراً جان غولميه (J. Gaulmier)[١٤] البرهنة على أن مهمة سرية أسندت لڤولني من قبل وزير الخارجية الفرنسي الذي أراد أن يبرهن عدم جدوى غزو فرنسا للمشرق. خارج هذا الاعتبار وخارج موقف ڤولني من الشرق وأسباب « انحطاطه »، كان مؤلف « رحلة إلى مصر وسورية » أول من حاول ما يمكن تسميته « عقلنة » كتاب الرحلة. إذ بدأ باستبعاد تفاصيل الرحلة و« المغامرات الشخصية »، كونها طويلة ومضجرة. وقد اعتمد تبويب المعلومات والملاحظات في فصول عامة: الحالة الطبيعية (المناخ، الرياح، النبات . . .)، والحالة السياسية (السكان، التاريخ، حكم المناطق، الملكية، العادات، تأثير الدين . . .). هكذا يعتبر كتاب ڤولني تتويجاً لسلسلة طويلة من كتب الرحلات، تراوح أسلوبها بين النَفَس القصصي والمراكمة الفوضوية للملاحظات. رغم أن سانت بوف (Sainte-Beuve) وجد في طريقة ڤولني « نموذجاً يحتذى لوصف ودراسة أية بقعة من بقاع الدنيا »، فإن القرن التاسع عشر أعاد الذاتية إلى أدب الرحلات، وتبلور خلاله كتاب الرحلة كنوع أدبي مستقل.

الحواشي

(١) HAZARD, Paul: La crise de la conscience européenne, Fayard, Paris, 1961, p. 7

(٢) RIESTELHUEBER, Rene: Traditions francaises au Liban, Librairie Felix Alcan, Paris, 1918, p. 96.

(٣) COURMENIN, Deshayes: Voyage de Levant fait par le commandement du Roy en l'anneé 1621, Paris, 1624.

(٤) Ibid, pp. II-III.

(٥) غالباً ما يمكن أن يقع القارىء على ملاحظة من نوع « وصلنا إلى ليماسول: ولكننا بقينا ثلاثة أيام على ظهر الباخرة، لأنه لم يكن في المدينة ما يجدر بالمشاهدة خاصة وإن أغلبية سكانها من الأتراك (المسلمون) »

DANDINI, Jérôme :
Voyage du Mont Liban (1596), Paris, 1670.

(٦) MARTINO, Pierre: L'Orient dans la litterature francaise aux XVII° et XVIII° siecles; Hachette, Paris, 1906, p. 55.

(٧) La ROQUE, Jean de: Voyage de Syrie et du Mont Liban, 2 vol., Amsterdam, 1723.

(٨) «Mémoires concernant l'histoire, les sciences, les arts, les moeurs et les usages des Chinois par les missionnaires de Pékin», Paris, 1776.

(٩) VOLNEY: Voyage en Egypte et en Syrie, 2 vol., Paris, 1787.

(١٠) LOISEAU, Jean: Le voyage dans la litterature anglo-saxonne, Congrès de Nice, 1971.

(١١) NIEBUHR, Carsten: Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins, 2 vol., Amsterdam, 1780.

(١٢) CASSAS, Louis-Ferdinand: Voyage pittoresque de Syrie, de Phénicie, de la Palestine et de la Basse-Egypte, 2 vol., Paris, 1789.

(١٣) يقول مكسيم رودنسون حول تلك الفترة: « ألقى القرن الثامن عشر على الشرق المسلم نظرة أخوية ومتفهمة. وقد كانت فكرة تساوي جميع البشر لجهة استعداداتهم الطبيعية تسمح بموقف نقدي تجاه المآخذ التي وجهتها العصور السابقة إلى العالم الاسلامي ».

RODINSON, Maxime: La fascination de l'Islam, Maspéro, Paris, 1980, p. 71.

(١٤) GAULMIER, Jean: L'idéologue Volney, Beyrouth, 1951.

قائمة بأهم كتب الرحلات إلى المشرق
من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر

١ ـ القرن السادس عشر:

- THENAUD, Jehan, Le voyage d'Outremer (1512), publié par Ch. Schefer, Ernest Leroux, Paris, 1884.
- VARTHEMA, Ludovico de: Itinerario deL.D.V.Bolognose ne lo Egypto ne la Suria.., Milan, 1523
- SALIGNACO, Barthélémy de: Itinerarii Terrae Sanctae, Lyon, 1525.
- AFFAGART, Greffin: Relation de Terre Sainte (1533-1534) publié par J. Chavanon, Paris, 1902.
- BELON, Pierre: Les observations de plusieurs singularités et choses mémorables trouveés en Grèce, Asie, Judée, Egypte Arabie.., Paris, 1553.
- RAUWOLF, Leonard: Aigentliche Beschreibung der Raisz in die Morgenländer.., Lausingen, 1582.
- ZALLARDO, Giovanni: Il devotissimo viaggio di Gerusalemme, Rome, 1595.
- SANDERSON, John: The travels of John Sanderson in the Levant (1584-1602), Londres, 1931.

٢ ـ القرن السابع عشر:

- RADZIVILL, N. Christophore: Hierosolymitana Peregrination, Brunsberg, 1601.
- VILLAMONT, DE: Les voyages du Seigneur de Villamont, Lyon, 1609.
- BEAUVAU, Henry de: Relation journalière du voyage du Levant fait et descrit par haut et

puissant seigneur Henry de Beauvau, Toulouse, 1609.
– COTOVICUS, Ioanne: Itinerarium Hierosolymitanum et Syriacum.., Verdussius, 1619.
– BOUCHER, P.: Le Bouquet sacré, Paris, 1620.
– PARISIEN, Bénard: Le voyage de Hierusalem, Paris, 1621.
– COURMENIN, Deshayes de: Voyage de Levant fait par le commandement du Roy en l'année 1621, par le Sieur D.C., Paris, 1624.
– BREVES, Savary de: Relation des voyages de Monsieur de Brèves, Paris, 1628.
– SANDYS, Georges: A relation of a journey begun A.D. 1610, London, 1632.
– VITALE, Tommaso: Il Libano nel 1643. Relazione del P. Tommazo Vitale, dominicano, Ed. Paul Carali, Naples, 1935.
– ROGER, Eugène: La Terre Sainte, Paris, 1646.
– RENNES, Ambroise de: Brevis ac vera relatio visitationis factae a Patre F.A. de Rennes, capucino in annis 1644-1647, 1927.
– T.S. TRINITE, Philippe de la: Voyage en Orient, Lyon, 1652.
– LA BOULLAYE-LE-GOUZ: Les voyages et les souvenirs de La Boullaye-Le-Gouz, Paris, 1653.
– DOUBDAN Jean: Le voyage de la Terre Sainte, Paris, 1657.
– BESSON, Joseph: La Syrie Sainte, Paris, 1660.
– DELLA VALLE Pietro: Fameux voyages dans la Turquie, l'Egypte, la Palestine, la Perse..., 4 vol., Paris, 1663. (Rome, 1662).
– THEVENOT, Jean de: Voyages de Thévenot, Paris, 1664.
– SURIUS, Bernardin: Le pieux pélerinage, Bruxelles, 1664.
– ARMANVILLE, Poullet d': Nouvelles relations du Levant, 2 vol. Paris, 1667.
– FERMANEL, etc...: Observations curieuses sur le voyage du Levant fait en 1630 par MM. Fermanel Fauvel, Baudouin,.., Rouen, 1668.
– SAINT-AIGNAN, Sylvestre de: Description abrégée de la Sainte montagne du Liban..., Paris, 1671.
– GOUJON, Jacques: Histoire et voyage de la Terre Sainte, Lyon, 1671.
– BREMOND, Gabrielle: Viaggi fatti nell'Egito.. Palestina, Fenicia, Monte Libano.., Rome, 1673.
– DANDINI, Jérôme: Voyage du Mont Liban, trad. de l'italien par Richard Simon, Paris, 1675. (Césène, 1656).
– NOINTEL, Olier de: L'odyssée d'un ambassadeur. Les voyages du marquis de Nointel (1670-1680), Paris, 1900.
– COPPIN, Jean: Relation des voyages faits dans la Turquie, la Thébaïde et la Barbarie.., Lyon, 1686.
– TRESSAM, Pierre: Relation nouvelle exacte d'un voyage de la Terre Sainte, Paris, 1688.
– MONCONYS, Balthazar de: Journal des voyages de B.D.M., 3 vol., Lyon, 1695.

قوة العلاقة بين أوروبا والشرق، فأصبح الشرق مجالاً للتنافس السياسي والاقتصادي الغربي. كل ذلك، والمستشرقون يؤمنون بأن « الشرق شرق »، وأنه لا يتغيّر، ممّا دفع بالنزعة العنصرية للظهور عند عددٍ كبير منهم، وإن لم يكونوا جميعاً قد عبّروا عنها بنفس الصراحة التي نجدها عند رينان. فـ « شليجل »، مثلاً، ينسب كثيراً جداً من الأوصاف والنعوت غير الكريمة للساميين وغيرهم من الشرقيين « المنحطّين »، فشاعت هذه الآراء بسرعة في الثقافة الأوروبية، معتمدة التفرقة على أساس المقارنات الفيلولوجية، حتى انتشرت في كتابات هؤلاء العلماء،المفاهيم التي آمنوا من خلالها بوجود صلة قويّة بين السلالة واللغة. صلة أو رابطة لا فكاك منها.

لقد تعرّض الكاتب العربي أنور عبد الملك في مقال رائع له بعنوان: « الاستشراق في أزمة »، (نشره في مجلّة « ديوجين » في شتاء عام ١٩٦٣)، إلى هذه المشكلة فقال: إن المستشرقين ابتداءً من « رينان » إلى « جولد تسهير » إلى « ماكدونالد » و« جيب » و« برنارد لويس » كانوا يعتبرون الاسلام « مركباً ثقافياً »، يمكن دراسته بعيداً عن اقتصاديات الشعوب الاسلامية وحياتها الاجتماعية ونظمها السياسية، إلى أن جاء علماء الاجتماع والانتروبولوجيا الذين اهتموا بالاسلام، واتبعوا في دراسته مناهج جديدة، تعالج الاسلام كظاهرة دينية واجتماعية شديدة التعقيد، ووجدوا كم أخطأ المستشرقون. وكم من الخطأ والخطر أن تترك دراسة الاسلام للمستشرقين وحدهم. ولكن إذا كنّا نخطّىء المستشرقين في عدم فهمهم أو استيعابهم « وحيادهم » بالنسبة لنا، فإن هذا يثير تساؤلاً آخر هو: ما فعل العلماء الشرقيون لدراسة ثقافتهم وتراثهم الطويل العريق ومجتمعاتهم التقليدية؟ وما هي إسهاماتهم في حركة الاستشراق، أو على الأصحّ، الدراسات الشرقيّة التي ظلّت لقرون طويلة وقفاً على العلماء الغربيين؟ صحيح أن هناك حركة نقد قويّة، يقوم بها الآن عدد من العلماء في مختلف بلاد الشرق تهدف إلى فحص التراث الذي تركه المستشرقون الأوائل وتقويمه، والردّ على الآراء والأفكار التي تصدر عن المستشرقين المعاصرين. صحيح أن هذه الحركة تلقي كثيراً من الضوء على بعض الجوانب الخفيّة في التراث الشرقي نفسه، وتوضح بعض النواحي التي لم يستطع العقل الغربي فهمها على حقيقتها، كما أنها تكشف عن الدوافع والأهداف التي تكمن وراء كثير من الأعمال التي قام بها المستشرقون، ولكنها تبقى بعد هذا كلّه، حركة سلبيّة إلى حدّ كبير؛ بالأخصّ أن الغالبية من علماء الشرق لا يزالون يعتمدون في كتاباتهم على ما تركه لهم هؤلاء المستشرقون. ويكاد دورهم هم ينحصر إمّا في ترديد الأفكار والآراء والنظريات التي وردت في أعمال المستشرقين؛ أو نقدها ومحاولة تجريحها دون أن يكون هناك إسهام إيجابي وخلاّق إلاّ في القليل النادر. فالأمر الآن، بات يتطلّب من العلماء في الشرق أن يتخطّوا مرحلة التصدّي للكتابات الغربية بالنقد والتقويم، إلى الغوص في لبّ المشكلة، وهي الدراسة الجادة العميقة والتغلغل إلى أعماق التراث الشرقي وعرضه والتعريف به. ومثل هذه الجهود يجب أن تلقى ما تستحقه من توجيه وتشجيع من المنشآت والمعاهد العلمية، ومن الحكومات

أيضاً. لأنها جهود تهدف ليس فقط إلى التعريف بالشرق على حقيقته، وإنما سوف تحقّق في آخر الأمر توكيد الذات وإثبات الكيان، والعودة بالاستشراق إلى سموّ غاياته.

خاتمة

وبعد، فقد يسأل سائل: هل يستحق الاستشراق والمستشرقون منّا هذا الجهد في دراسة مؤلفاتهم والبحث في مناهجهم؟ والجواب بلا تردّد بـ نعم! على أن نعرف كيف ندرسهم، وما نأخذ منهم وما ندع.

لقد قام المستشرقون بجمع المخطوطات العربية وفهرستها، وحقّقوا منها ما أمكنهم وما رأوه ضرورياً لدراستهم وأبحاثهم، ونشروها نشراً علمياً. وقد طبعوا في بلادهم العدد الجمّ من المؤلفات العربية المصادر، في التاريخ والأدب والتفسير والحديث والفقه. وترجموا إلى اللغات الغربية عدداً كبيراً من المؤلفات العربية، ووضعوا المعاجم وكتب القواعد، المخطّط لها بطريقة علمية. وضعوا مثل ذلك بالكتب المؤلفة باللغات الاسلامية غير العربية. وبذلك عرّفوا الغربيين بتراثنا، ووضعوا النصوص الأصلية المحققة، مع ترجماتها أحياناً، بين أيدي الدارسين الغربيين.

إلى ذلك، فقد درس وتعلّم على أيدي المستشرقين آلاف العلماء من العرب والمسلمين، فحملوا علومهم ومناهجهم إلى أوطانهم، وأثروا في ثقافتها ومناهجها وأساليب تفكيرها. ويكفي أن نذكر إسماً واحداً كبيراً، هو أبو اليقظة العربية الحديثة، الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، الذي درس وتعلّم أثناء إقامته في فرنسا، على يد كبير المستشرقين في جيله: انطوان سلفستر دوساسي.

كما كتب المستشرقون آلاف الكتب، وعشرات الآلاف من الأبحاث والمقالات عن الاسلام؛ مازال الكثيرون من أساتذتنا يعتمدون عليها، ويذكرون ذلك صراحة حيناً، ويكتمون ذلك في معظم الأحيان. لذلك، فإن فكر المستشرقين يستحق منّا الاهتمام والعناية. فبإمكاننا أن نفيد من مناهجهم في تطوير مناهجنا وأساليبنا. لأنهم واصلوا تطويرها وتهذيبها بالممارسة والنقد والإفادة من تقدّم البحث العلمي، عامة، ومناهج العلوم الانسانية خاصة. وإذا لم نفد من دراسة مؤلفات المستشرقين آراء جديدة في تاريخنا، نظراً لانحيازهم في بعض الأحيان في سردهم للوقائع أو التعليق عليها. وإذا لم نجد فيها تفسيرات جديدة أو مُقنعة لأسباب ازدهار حضارتنا وتقدمها، أو لعوامل جمودها وانحلالها. فلا شك في أننا سنفيد من ذلك توضيحاً لأفكارنا نحن، وتقويماً لمناهجنا، ورؤية أنفسنا كما تبدو في مرائي غيرنا من العلماء والباحثين.